مغامرات

شيرلوك هولمز



١٢

تأليف:
آرثر كونان دويل

مَنزل الأشجار النُّحاسيَّة



الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية

بسم الله الرحمن الرحيم



مغامرات

شيرلوك هولمز

(١٢)

منزل الأشجار النحَاسيّة

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد حزيران (يونيو) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الأجيَال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جِلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

منزل الأشجار النحاسيّة

قال شيرلوك هولمز وهو يرمي صفحة الإعلانات بجريدة الديلي تلغراف قائلاً: بالنسبة للشخص الذي يمارس فن التحليل المنطقي حباً بالفن نفسه فإن السعادة القصوى تُستمَدّ غالباً من القضايا الأقل أهمية والأدلة الأكثر تواضعاً، ويسعدني أن ألاحظ -يا واطسون- أنك حتى الآن استطعت فهم هذه الحقيقة وتوضيحها في هذه السجلاّت القصيرة لقضايانا التي تكرمت بكتابتها، أو يجب عليّ أن أقول «بزخرفتها» في بعض الأحيان، فأنت لم تعطِ الأهمية الكبرى للعديد من القضايا الشهيرة والمحاكمات المثيرة التي قمت بحلّها، بل اهتممتَ بتلك الحوادث التي ربما كانت عادية في حد ذاتها ولكنها تعطي مساحة لتلك القدرات الاستنتاجية وللربط المنطقي للحقائق الذي جعلته تخصصي المتميز.

قلت مبتسماً: وبالرغم من ذلك فأنا لا أستطيع أن أبرئ نفسي من التهمة التي أُخِذت على سجلاتي بسبب معالجتي للقضايا المثيرة.

فقال هولمز: ربما كنتَ قد أخطأت.

ثم تناول بملقطه جمرة متأجّجة أشعل بها غليونه

المصنوع من خشب الكرز الذي اعتاد أن يستعمله عندما يدخل في جدال بدلاً من غليونه الفخاري الذي عادة ما يستعمله عندما يكون في مزاج تأملي! وأكمل قائلاً: ربما كنتَ قد أخطأت حين حاولت أن تضيف اللون والحياة إلى كل ما ترويه بدلاً من أن تقتصر مهمتك على تسجيل ذلك التحليل المنطقي المجرَّد، بدءاً بالسبب وصولاً إلى النتيجة، وهو -في الحقيقة- الشيء الوحيد الجدير بالملاحظة في هذه القضايا.

فعلّقت قائلاً ببعض البرود (لأنني كنت أشعر بنفور شديد من الغرور الذي يمثل عنصراً قوياً في شخصية صديقي الرائعة): يبدو لي أنني قد وفّيتك حقك كاملاً في هذا الأمر.

فقال مجيباً كعادته على أفكاري بدلاً من كلماتي:

لا، إنه ليس غروراً ولا أنانية، فإذا طالبت بإنصاف فنّي في التحليل المنطقي فذلك لأنه أمر غير شخصي، شيء أقوى من نفسي. إن الجريمة شيء عادي، أما المنطق فأمر نادر؛ ولذلك يجب أن تُسهب في الكتابة عن المنطق لا عن الجريمة، أما أنت فقد حلّلت ما كان من المفروض أن يكون مجموعة من المحاضرات وحوّلته إلى سلسلة من الحكايات.

دار حوارنا هذا في صباح يوم بارد من أحد أيام الربيع المبكرة، وكنا قد جلسنا بعد الإفطار على

جانبي نار متأجّجة في الغرفة القديمة في شارع بيكر. كان الضباب الكثيف قد كسا صفوف المنازل البنية اللون فبدت النوافذ المقابلة كبقع داكنة غير منتظمة بين الأكاليل الكثيفة للزهور الصفراء، وأضاء مصباحنا وتلألأ على القماش الأبيض، وومضت الأواني الفضية والخزفية على الطاولة. وقد ظلّ شيرلوك هولمز صامتاً طَوال الصباح وغارقاً في قراءة أعمدة الإعلانات في صحيفة تلو الأخرى، حتى تخلى عن بحثه أخيراً وبدا في مزاج سيئ فراح يلقي عليّ تلك المحاضرة عن عيوبي الأدبية!



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

وعلّق قائلاً بعد صمت جلس خلاله ينفث دخان غليونه ذي الساق الطويلة ويحدّق إلى النار: وفي الوقت نفسه لا يمكن تعريضك لتهمة معالجة القضايا المثيرة، فمن بين تلك القضايا (التي كنت لطيفاً جداً باهتمامك بها) كان عدد كبير لا علاقة له بالجريمة بمعناها القانوني على الإطلاق؛ فالمشكلة الصغيرة التي سعيت فيها لمساعدة ملك بوهيميا والمشكلة المتعلقة بصاحب الشفة الملتوية وقضية النبيل الأعزب... هذه كلها كانت قضايا خارج حدود القانون، ولكنني أخشى أنك قمت بالتوقف عند القضايا العادية حين تجنبت القضايا المثيرة.

فأجبته قائلاً: ربما كانت النتيجة كذلك، ولكن الأساليب التي تمسّكت بها كانت جديدة ومثيرة للاهتمام.

- يا صديقي العزيز، ما الذي يهم العامة، عامة الناس الغافلين الذين لا يستطيعون تمييز النسّاج من أسنانه ولا عامل المطبعة من إصبع الإبهام الأيسر، ما الذي يهمهم لو أن هناك درجات أدقّ من التحليل والاستنتاج؟ ولكن لو كنت تلجأ إلى القضايا العادية حقاً فذلك لأن أيام القضايا المهمة قد ولّت. ولا أستطيع لومك؛ فالإنسان، أو المجرم على الأقل، فقدَ كل الأصالة والإقدام. أما عن عملي الخاص فقد

تدهور حاله ليصبح وكالة لاستعادة أقلام الرصاص المفقودة وإعطاء النصائح للشابات في المدارس الداخلية! أنا أظن أنني قد نزلت إلى أدنى مستوى على أية حال، وهذه الرسالة القصيرة التي استلمتها اليوم صباحاً تدل على وصولي إلى مرحلة الصفر كما أتخيل، اقرأها.

ثم ألقى إليّ ورقة مجعدة كان نصها كالآتي:

عزيزي السيد هولمز،

أنا متشوّقة جداً لاستشارتك فيما إذا كان يحسن بي أو لا يحسن بي قبول عرض بالعمل مربّية، سأزورك في الساعة العاشرة والنصف غداً إذا لم يضايقك ذلك.

المخلصة: فيوليت هنتر

سألته قائلاً: أتعرف هذه الشابة؟

- لا.

- إنها العاشرة والنصف الآن.

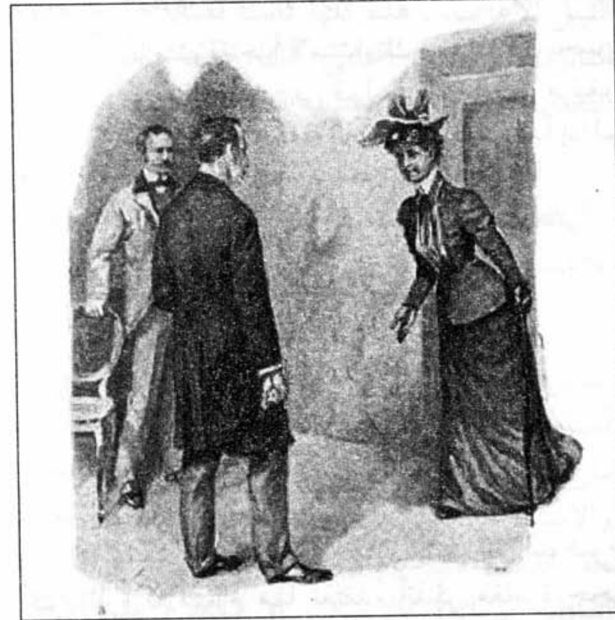
- أجل، ولا شك أنها من يدق الجرس الآن.

- يمكن أن يثبت في نهاية الأمر أن الموضوع أكثر إثارة للاهتمام مما تعتقد. أتذكر مغامرة حجر العقيق الأزرق التي ظهرت كمجرّد نزوة في البداية ثم

تحولت إلى تحقيق خطير؟ يمكن أن يكون الأمر كذلك في هذه القضية أيضاً.

- حسناً، نرجو ذلك.

فُتح الباب ودخلت الغرفةَ شابةٌ صغيرة، كانت ترتدي ملابس بسيطة ولكنها أنيقة ولها وجه مشرق يبدو عليه الذكاء ويكسوه النمش، وقد بدا من أسلوبها أنها امرأة تشق طريقها في الحياة وحدها.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

قالت حين وقف رفيقي ليحيّيها: أنا متأكدة أنك ستعذرني لما سببته لك من إزعاج، ولكنني مررت بتجربة غريبة وفكرت في أنك قد تتكرم وتخبرني بما أفعل، فأنا ليس لي والدان ولا أقارب يمكن أن أطلب منهم النصح.

- أرجو أن تجلسي يا آنسة هنتر، سأكون سعيداً بصنع أي شيء لمساعدتك.

لاحظت أن هولمز قد أُعجب بأسلوب عميلته الجديدة، فقد نظر إليها بتفحّص كعادته، ثم أرخى جفنيه وجمع أطراف أصابعه معاً ليستمع إلى قصتها.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

قالت: أنا أعمل مربية منذ خمس سنوات لدى عائلة الكولونيل سبنس مونرو، ولكن منذ شهرين تلقى الكولونيل عرضاً لوظيفة في هاليفاكس في كندا واصطحب أولاده معه، وهكذا وجدت نفسي بلا وظيفة، فوضعت إعلاناً لطلب وظيفة وأجبت على إعلانات توظيف ولكن بلا نتيجة، وأخيراً بدأ المال القليل الذي كنت أدّخره ينفد وأعيتني الحيلة وأنا أفكر فيما يجب أن أفعل.

توجد وكالة جيدة لتوظيف المربّيات في طرف المدينة الغربي تديرها امرأة اسمها الآنسة ستوبر، وقد اعتدت الذهاب إليها مرة كل أسبوع لأرى إن كان لديها ما يناسبني. الآنسة ستوبر تجلس في مكتبها الصغير، وتأتي السيدات اللائي يسعَين إلى وظيفة فينتظرنَ في غرفة للانتظار ويتم إرشادهن إلى الداخل الواحدة تلو الأخرى، وتقوم هي بمراجعة سجلاتها لترى إذا كان لديها ما يناسب. حسناً، عندما ذهبت في الأسبوع الماضي أرشدوني إلى المكتب الصغير كالعادة، ولكني وجدت أن الآنسة ستوبر لم تكن وحدها، بل كان يجلس بجوارها رجل بدين له وجه بشوش جداً وذقن ضخم، وقد وضع على أنفه نظارة وراح يتفحّص السيدات الداخلات باهتمام شديد. وقد قفز من كرسيه عندما دخلت والتفت إلى السيدة ستوبر وقال: هذه ستفي بالغرض، لم أكن لأتمنى ما

هو أفضل. ممتاز، ممتاز!

وبدا متحمساً جداً وفرك يديه بطريقة لطيفة. كان رجلاً مريح المظهر ترتاح إليه النفس، وسألني: أتبحثين عن وظيفة يا آنسة؟

- نعم يا سيدي.

- مربية؟

- نعم يا سيدي.

- وما هو الراتب الذي تطلبينه؟

- كنت أتقاضى أربعة جنيهات في الشهر عندما



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

كنت أعمل مع الكولونيل سبنس مونرو.

فصاح وهو يلوّح بيديه في الهواء كمن اعتراه انفعال شديد وقال: آه، هراء، هراء! يا له من أجر زهيد! كيف يمكن لأحد أن يعرض مثل هذا المبلغ التافه على سيدة لها مثل مميّزاتك وإنجازاتك؟

فقلت: إن إنجازاتي -يا سيدي- قد تكون أقل مما تتصور، القليل من الفرنسية والقليل من الألمانية بالإضافة إلى الرسم والموسيقى.

فصاح قائلاً: هراء! هذا كله خارج الموضوع. المهم هو إن كان لديك سلوك وتصرفات سيدة أم لا، هذا هو الأمر باختصار، فلو لم تكوني كذلك فأنت إذن لا تصلحين لتربية طفل قد يلعب دوراً مهماً في تاريخ البلاد، ولكن إذا ملكت الوسيلة فكيف يمكن إذن لأي سيد أن يطلب منك أن تتنازلي وتقبلي بأي شيء يقل عن ثلاثة أرقام؟ إن راتبك معي يا سيدتي سيبدأ بمئة جنيه في العام.

لك أن تتخيل -يا سيد هولمز- كيف بدا لي مثل هذا العرض، وأنا معدمة، أروع من أن يصدَّق! على أية حال فقد فتح السيد المحترم محفظته وأخرج منها ورقة مالية، ربما حين رأى عدم التصديق على وجهي، وقال وهو يبتسم بشكل مبهج جداً حتى بدت عيناه

الشقين صغيرين يلمعان وسط ثنايا وجهه البيضاء: إن من عادتي أيضاً أن أدفع للسيدات العاملات عندي نصف راتبهن مقدماً حتى يستطعن مواجهة أي نفقات بسيطة لرحلتهن أو لملابسهن.

وبدا لي أنني لم أقابل شخصاً في مثل روعة ذلك الرجل ومراعاته للآخرين، فقد كنت أدين بالفعل للتجار الذين أتعامل معهم، وكانت السلفة ملائمة جداً، ولكن كان هناك شيء غير طبيعي بخصوص هذه الصفقة جعلني أرغب في معرفة المزيد قبل أن ألزم نفسي بهذا الأمر، فقلت له: هل لي أن أسألك عن محل إقامتك يا سيدي؟

- في مكان ريفي ساحر في هامبشير. منزلي اسمه «أشجار الزان النحاسية»، وهو يبعد خمسة أميال عن وينشستر. إنه منزل ريفي قديم وعزيز يقع في أجمل بلاد الريف.

- وماذا عن واجباتي يا سيدي؟ سيسعدني أن أعرف شيئاً عنها.

- إنه طفل واحد، طفل صغير عزيز شديد الحيوية يبلغ من العمر ست سنوات. آه لو تمكّنت من رؤيته وهو يقتل الخنافس. اضرب، اضرب، اضرب... وفي الحال تكون ثلاث منها قد قُتلت بسرعة البرق!

ثم رجع إلى الخلف في كرسيه وضحك بشدة، وصُدمت قليلاً من طبيعة تسلية الطفل، ولكن ضحك الأب جعلني أعتقد أنه ربما كان يمزح. فسألته قائلة: إذن سوف يكون واجبي رعاية طفل وحيد؟

فصاح قائلاً: لا، لا، ليست هذه مهمتك الوحيدة يا عزيزتي؛ سيكون من واجباتك أن تطيعي زوجتي في كل ما تأمرك به، وأعدك أن تكون تلك الأوامر دائماً في حدود اللياقة. ليس في الأمر صعوبة، فما رأيك؟

- يسعدني أن أكون مفيدة.

- تماماً، وعلى سبيل المثال بالنسبة للملابس: إننا أُناس مهووسون... نعم، ولكننا طيبون، فهل ستعترضين على نزواتنا الصغيرة لو طلبنا منك مثلاً أن ترتدي أي ثوب نعطيه لك؟

فقلت وقد أذهلتني كلماته تماماً: لا!

- ولن تشعري بالإهانة إن طلبنا منك الجلوس هنا أو هناك؟

- آه، لا.

- أو لو طلبنا منك قص شعرك ليصبح قصيراً جداً قبل قدومك؟

لم أستطع تصديق ما سمعت، فكما تلاحظ يا سيد هولمز- فإن شعري غزير وله لون كستنائي جميل، ولذلك لا أحلم بالتضحية به بهذه الطريقة الفظة. فقلت: أخشى أن هذا مستحيل تماماً.

كان يراقبني بلهفة بعينيه الضيقتين، واستطعت رؤية الكآبة تظهر على وجهه حين كنت أتكلم. ثم قال: أخشى أن هذا طلب أساسي. إنها نزوة لزوجتي، ونزوات السيدات -كما تعرفين يا سيدتي- يجب أن تراعى. أنت لن تقصّي شعرك إذن؟

فأجبته بصرامة: لن أفعل يا سيدي، لا أستطيع ذلك حقاً.

- آه، هذا يحسم الأمر. إنه لأمر يدعو إلى الأسف، فقد كنت مناسبة تماماً من كل النواحي الأخرى. في هذه الحالة من الأفضل أن أقابل شابّات أخريات يا آنسة ستوبر.

كانت المديرة قد جلست طَوال تلك المدة مشغولة بأوراقها ولم توجّه أي كلمة لأحد منا، ولكنها نظرت إليّ في تلك اللحظة وعلى وجهها ضيق شديد، حتى لقد شككت في أن رفضي قد تسبب في خسارتها لعمولة كبيرة. وسألتني قائلة: أترغبين في أن يظل اسمك في السجلات؟

- نعم، لو سمحت يا سيدة ستوبر.

فقالت بحدة: إن الأمر يبدو عديم الجدوى بما أنك ترفضين أفضل العروض بهذه الطريقة، لا يمكنك أن تتوقعي منا أن نجهد أنفسنا لنجد لك فرصة أخرى مثل هذه. أتمنى لك يوماً سعيداً يا آنسة هنتر.

ثم قرعت الجرس على الطاولة فرافقني الخادم إلى الخارج.

* * *

حسناً يا سيد هولمز، حين عدت إلى مسكني ونظرت إلى القليل الموجود بالخزانة ووجدت فاتورتين على الطاولة بدأت ألوم نفسي لحماقة تصرفاتي، فرغم كل شيء وحتى لو كان لهؤلاء الناس نزواتهم ويتوقعون الطاعة في أكثر الأمور غرابة فهم -على الأقل- مستعدون لأن يدفعوا مقابل غرابة أطوارهم. وكم من المربيات في إنكلترا يتقاضين مئة جنيه في العام؟ قليل جداً. ثم بماذا يفيدني شعري؟ كثير من الناس يتحسن شكلهم عندما يقصّون شعورهم، وقد أكون أنا من هؤلاء.

في اليوم التالي مِلت إلى الاعتقاد بأنني قد ارتكبت خطأ، وفي اليوم الذي تلاه تأكدت من ذلك، وكنت على وشك أن أتغلب على كبريائي وأن أذهب

إلى الوكالة للاستفسار عما إذا كانت الوظيفة لا تزال متاحة حين تسلمت هذه الرسالة من السيد المحترم نفسه. إنها معي وسأقرؤها لك:

منزل «أشجار الزان النحاسية»، وينشستر.

عزيزتي الآنسة هنتر،

لقد تكرمَت الآنسة ستوبر وأعطتني عنوانك، وأنا أكتب لك من هنا لأسألك إذا كنت قد أعدت النظر في قرارك. إن زوجتي متلهفة لمجيئك، فقد سحرها وصفي لك. نحن على استعداد لدفع ثلاثين جنيهاً كل ثلاثة أشهر، أي مئة وعشرين جنيهاً كل عام، وذلك لنعوضك عن أي إزعاج قد تسببه لك نزواتنا، بالرغم من أنها ليست قاسية جداً.

إن زوجتي تحب نوعاً من اللون الأزرق الفولاذي وتريد منك أن ترتدي ثوباً بهذا اللون داخل المنزل في الصباح، ولكننا لن نكلفك عناء شراء ثوب كهذا على أية حال، فلدينا واحد يخص ابنتنا العزيزة أليس، وهي تقيم الآن في فيلادلفيا، وهو سيناسبك تماماً على ما أظن.

أما بالنسبة للجلوس هنا أو هناك أو تسلية نفسك بأية طريقة يشار عليك بها فلا حاجة إلى أن

يسبب لك ذلك أي إزعاج. وفيما يخصّ شعرك فهذه خسارة ولا شك، لا سيما وقد لاحظتُ جماله في مقابلتنا القصيرة، ولكني أخشى أنني مضطر إلى الإصرار على هذه النقطة، وأتمنى أن تعوّضك زيادة الراتب عن الخسارة. أما واجباتك تجاه الطفل فهي خفيفة جداً.

والآن أرجو أن تحاولي القدوم، وسأقابلك ومعي عربة صغيرة في وينشستر إذا أخبرتني بموعد وصول قطارك.

المخلص: جيفرو روكاسل

هذا هو الخطاب الذي تلقيته يا سيد هولمز، وقد قررت أن أقبل، ولكنني فكرت في استشارتك في هذا الأمر كله قبل أن أقوم بأي خطوة.

قال هولمز مبتسماً: حسناً يا آنسة هنتر، إن قرارك بالقبول يحسم الأمر.

- ولكن ألن تنصحني بالرفض؟

- أعترف بأنني ما كنت لأحب لأختي وظيفة كهذه الوظيفة.

- ولكن ما هو تفسيرك للأمر يا سيد هولمز؟

- لا أملك ما يكفي من المعلومات، ولذلك

لا يمكنني التكهن. ربما كنتِ قد توصلت بنفسك إلى رأي عن الموضوع.

- حسناً، لقد فكرت فاهتديت إلى احتمال واحد ممكن؛ بما أن السيد قد بدا حسن الطبع ولطيفاً جداً، أفلا يمكن أن تكون زوجته مجنونة وهو يحاول تهدئتها خشية أن يضطروا إلى إدخالها إلى مستشفى المجانين، ولذلك فهو يقوم بتلبية كل نزواتها بكل طريقة لكي يمنع تدهور حالتها؟

- من الممكن أن يكون هذا هو الحل، ولكن أياً كان الأمر فلا تبدو العائلة لطيفة.

- ولكن المال يا سيد هولمز... المال.

- حسناً، نعم، إن الراتب جيد بالطبع، بل هو جيد جداً، وهذا يقلقني؛ فلماذا يدفعون مئة وعشرين جنيهاً في العام إذا استطاعوا الحصول على ما يريدون مقابل أربعين جنيهاً؟ لا بد أنّ وراء ذلك سبباً قوياً.

- لقد فكرت أنني لو أخبرتك الآن بملابسات القضية فسوف تفهم الأمر فيما بعد إذا احتجت إلى مساعدتك، سأشعر بأنني أقوى إذا علمت أنك تساندني.

- يمكنك أن تطمئني إلى ذلك، وأنا أؤكد لك أن مشكلتك الصغيرة تبشّر بأن تكون أكثر القضايا التي

وردت إليّ منذ عدة أشهر إثارة للاهتمام، ففيها شيء غريب بالتأكيد بخصوص بعض العناصر، فلو أنك وجدت نفسك في حيرة أو في خطر...

- خطر؟! ما هو الخطر الذي تتوقعه؟

هزّ هولمز رأسه بجدّ وقال: يتوقف الخطر إذا استطعنا تحديد طبيعته، ولَكِن إذا أرسلتِ إليّ برقية في أي وقت فسأحضر إليك فوراً لمساعدتك.

قامت من كرسيها بسرعة وقد اختفى كل القلق الذي كان مرتسماً على وجهها وقالت: يكفيني هذا، سأذهب إلى هامبشير وأنا مطمئنة الآن. سأكتب إلى السيد روكاسل حالاً، كما سأضحي بشعري المسكين الليلة لأذهب إلى وينشستر غداً.

ثم تمنّت لنا ليلة سعيدة بعد أن أبدت امتنانها لهولمز وانطلقت في طريقها بنشاط.

قلت ونحن نسمع خطواتها السريعة الثابتة وهي تهبط على الدرَج: على الأقل يبدو أنها شابة قادرة على الاعتناء بنفسها.

فقال هولمز باهتمام: وستحتاج إلى ذلك، وسأكون على خطأ كبير إن لم نسمع عنها خلال أيام قليلة.

* * *

لم يمرّ وقت طويل حتى تحققت نبوءة صديقي.

مرّ أسبوعان، وكثيراً ما وجدت نفسي خلالهما أفكر فيها وأتعجب من تلك التجربة الإنسانية الغريبة التي تاهت فيها هذه المرأة الوحيدة، فالراتب الاستثنائي والشروط المثيرة للفضول بالإضافة إلى الواجبات الخفيفة كلها أشياء تشير إلى وجود شيء غير عادي، بالرغم من أنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كان الأمر نزوة أو مؤامرة وما إذا كان الرجل محباً للخير أو شريراً.

أما بالنسبة لهولمز فقد لاحظت أنه كثيراً ما كان يجلس لنصف ساعة متصلة وهو شارد عاقد جبينه، ولكنه لوّح بيده مُنهياً الموضوع حين ذكرته أمامه وصاح بنفاد صبر قائلاً: المعلومات، المعلومات، المعلومات... فأنا لا أستطيع صنع الطوب بلا طين!

وبالرغم من ذلك كان دائماً ما يختم الأمر وهو يتمتم بأنه لم يكن على أخت له أن تقبل بمثل هذه الوظيفة.

وصلت البرقية التي استلمناها أخيراً في وقت متأخر من إحدى الليالي وأنا على وشك الخلود إلى النوم وهولمز يستعد لبعض الأبحاث الكيماوية التي كان ينغمس فيها أحياناً الليلَ بطوله، حيث

أتركه منحنياً على إناء للتقطير وأنبوب اختبار وأعود في الصباح لتناول الإفطار لأجده على نفس الوضع.

فتح هولمز الظرف الأصفر وألقى نظرة سريعة على الرسالة، ثم رماها إلي قائلاً: تَقَصَّ عن مواعيد القطارات في دليل برادشو للسكك الحديدية. هل ستأتي معي؟

قلت: أتمنى ذلك.

كان استدعاء قصيراً ولكنه عاجل، وكان هذا نصه: «أرجو أن تحضر إلى مقهى بلاك سوان عند منتصف نهار يوم غد، أرجو أن تأتي؛ فأنا لا أعرف ماذا أفعل. هنتر».

قلت وأنا أفحص دليل برادشو: هذا قطار ينطلق في التاسعة والنصف وموعد وصوله إلى وينشستر هو الحادية عشرة والنصف.

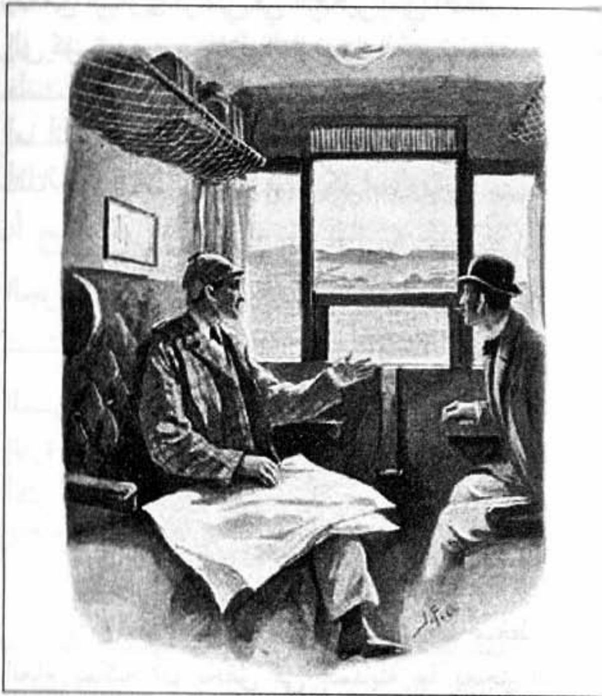
– هذا سيَفي بالغرض تماماً. من الأفضل إذن أن أؤجل تجربتي لأن علينا أن نكون في أفضل حالاتنا في الصباح.

* * *

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كنا قد قطعنا شوطاً كبيراً باتجاه عاصمة إنكلترا

القديمة، وكان هولمز غارقاً في صحف الصباح طَوال الطريق، ولكن عندما عبرنا حدود هامبشير ألقى بالصحف وبدأ يستمتع بجمال المنظر.

كان يوماً مثالياً من أيام الربيع، فالسماء زرقاء صافية تتناثر فيها سحب بيضاء ناعمة تتحرك من الغرب إلى الشرق، وبالرغم من أن الشمس كانت



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

متوهجة فقد شعرنا بلسعة برد منعشة تجدّد النشاط على طول طريق الريف، وظهرت أسقف المزارع ذات اللون الأحمر وسط اللون الأخضر اليانع للبراعم الجديدة. صحت بحماسةِ رجلٍ خرج لتوّه من ضباب شارع بيكر: أليست جميلة هذهً البيوت؟

فهزّ هولمز رأسه بوقار وقال: أتعرف يا واطسون؟ إن من مساوئ نزعتي في التفكير أنني أضطر إلى النظر إلى كل شيء من خلال الموضوع الذي تخصصت فيه، فأنت تنظر إلى تلك المنازل المتناثرة وتنبهر بجمالها، أما أنا فحين أنظر إليها أفكر فقط في أنها منعزلة وفي أن الجريمة قد تُرتكَب فيها بكل سهولة.

فهتفت قائلاً: يا إلهي! من يستطيع أن يربط الجريمة بهذه البيوت القديمة الجميلة؟

- إنها دائماً ما تملؤني برعب مؤكد. إن رأيي المبنيّ على التجربة يا واطسون هو أن أكثر الجرائم إثارة للرعب تحدث في الريف البهي المبهج وليس في أكثر أزقة لندن حقارة وتدنّياً.

- إنك ترعبني.

- ولكن السبب واضح جداً. إن ضغط الرأي العام يمكنه أن يحقق في المدينة ما يعجز القانون عن تحقيقه، فليس فيها شارع جانبي من الوَضاعة

بحيث لا تؤثر صرخة طفل معذَّب في الجيران فتثير تعاطفهم وامتعاضهم، ولأن الجهاز الإداري للعدالة قريب جداً فأي شكوى بسيطة تجعله يبدأ بالعمل فوراً، ولذلك فإن المسافة قصيرة بين ارتكاب الجريمة وقفص الاتهام. ولكن انظر إلى هذه البيوت المنعزلة ولكل بيت فيها حقوله الخاصة الممتلئة بأناس جَهَلَة لا يعرفون إلا القليل عن القانون، فكر في الأفعال الوحشية الجهنمية والشر الخفي الذي قد يستمر في مثل هذه الأماكن لأعوام ولا يدري به أحد، فلو كانت هذه السيدة التي طلبت مساعدتنا ذاهبة إلى وينشستر لما خِفت عليها أبداً، ولكن الخطر يكمن في تلك الأميال الخمسة من الريف. على أن من الواضح أن الخطر لا يتهددها شخصياً.

- نعم، فبما أنها تستطيع القدوم إلى وينشستر لمقابلتنا فهي تستطيع الهرب.

- تماماً، فهي تتمتع بحريتها.

- فماذا يمكن أن يكون الأمر إذن؟ ألا تستطيع استنتاج أي تفسير؟

- لقد استنبطت سبعة تفسيرات منفصلة كل منها يغطي الوقائع التي نعرفها، ولكن لا يمكن تحديد أيها الصحيح دون المعلومات الجديدة التي سنجدها

في انتظارنا بلا شك. حسناً، ها قد اقتربنا، وسنطّلع قريباً على كل ما لدى الآنسة هنتر لتقوله.

كان مقهى «بلاك سوان» معروفاً في الشارع العام ولا يبعد عن المحطة كثيراً، وهناك وجدنا الشابة في انتظارنا وقد حجزت ركناً للجلوس، وكان غداؤنا ينتظرنا على الطاولة.

قالت بامتنان: إنني سعيدة جداً بقدومكما، هذا



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

لطف شديد منكما. في الواقع أنا لا أعرف ما يجب عليّ فعله، وستكون نصيحتك ثمينة جداً.

- أرجو أن تخبرينا بما حدث.

- سأفعل ذلك بسرعة لأنني وعدت السيد روكاسل بالعودة قبل الساعة الثالثة، وقد حصلت على إذنه بالحضور إلى هنا هذا الصباح ولكنه لا يعرف السبب.

دفع هولمز ساقَيه الطويلتين ناحية النار وأعدّ نفسه للاستماع وقال: أرجو أن تخبرينا بكل شيء بالترتيب.

- في البداية يجب أن أقول إن السيد والسيدة روكاسل لم يسيئا معاملتي، أقول ذلك حتى أكون عادلة معهما، ولكنني لا أستطيع فهمهما كما أنني لست مطمئنة إليهما.

- ما الذي لا تفهمينه؟

- التصرفات غير المبرَّرة... ولكنني سأقص عليك الأمر كما حدث. عندما جئت إلى هنا قابلني السيد روكاسل واصطحبني في عربته إلى منزل «أشجار الزان النحاسية»، وهو في موقع جميل ولكن المنزل ليس جميلاً في حد ذاته، وبالرغم من أنه مطلي

باللون الأبيض إلا أنه مليء بالبقع والخطوط من أثر الرطوبة والجوّ السيئ. وتحيط به حدائق، بل إنه محاط بغابات من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة ففيها حقل ينحدر حتى يصل إلى طريق ساوثهامبتون السريع الذي ينعطف بعد نحو مئة متر من الباب الأمامي. هذه الحديقة الأمامية تخص المنزل، أما الغابات التي تحيط بالمنزل فهي جزء من محمية اللورد سوذرتون، وقد سُمّي المنزل بهذا الاسم بسبب مجموعة أشجار الزّان ذات الأوراق النحاسية اللون التي ترتفع أمام باب القاعة مباشرة.

أوصلني رب عملي الذي كان ودوداً للغاية، ثم قدمني إلى زوجته والطفل في ذلك المساء. ولم يكن الاستنتاج الذي بدا لنا محتمَلاً في منزلك في شارع بيكر صحيحاً؛ فالسيدة روكاسل ليست مجنونة، بل لقد وجدتها امرأة صامتة شاحبة، كما أنها تصغر زوجها كثيراً، فعمرها لا يزيد عن الثلاثين كما بدا لي بينما لا يقل عمره هو عن الخامسة والأربعين.

وقد فهمت من محادثتهما أنهما متزوجان منذ سبع سنوات وأنه كان أرمل ولم ينجب من زوجته الأولى إلا ابنته التي ذهبت إلى فيلادلفيا، وقد أخبرني السيد روكاسل أنها قد تركتهم بسبب بغضها الغير المنطقي لزوجة أبيها. وبما أن الابنة لا يمكن أن يكون

عمرها أقل من عشرين عاماً فيمكننا أن نتخيل صعوبة موقفها مع زوجة أبيها الشابة.

بدت لي السيدة روكاسل عديمة الشخصية باهتة الملامح، ولم تؤثر فيّ لا تأثيراً سلبياً ولا إيجابياً. كانت عديمة الأهمية، وكان من السهل أن أرى أنها متفانية بشكل كبير في خدمة زوجها وابنها، فقد كانت عيناها الرماديتان تنتقلان من أحدهما إلى الآخر باستمرار لتلاحظ أي حاجة لهما وتلبّيها إذا استطاعت. وكان هو أيضاً يعاملها بلطف بطريقته الصاخبة الفجّة، وقد بدا -إجمالاً- أنهما زوجان سعيدان.

وبالرغم من ذلك فإن لدى هذه المرأة حزناً دفيناً، فغالباً ما تغرق في تفكير عميق وعلى وجهها حزن شديد، وقد فاجأتها أكثر من مرة وهي تبكي، حتى إنني فكرت في بعض الأحيان أن طباع ابنها هي سبب تعاستها، فأنا لم أقابل قط مخلوقاً في مثل سوء طباعه، فقد كان مدلّلاً بشكل شديد وطباعه غاية في السوء. كان صغير الحجم بالنسبة لسنّه ولكن رأسه كان كبيراً بشكل لا يتناسب معه، وقد بدا أنه يقضي حياته كلها في تناوب بين نوبات وحشية من الانفعال وبين فترات من العبوس والكآبة. كانت متعته الوحيدة هي أن يؤلم المخلوقات الأضعف منه، وقد أبدى مهارة شديدة في التخطيط للإمساك بالفئران والطيور

الصغيرة والحشرات... ولكني أفضّل أن لا أتحدث كثيراً عن هذا المخلوق يا سيد هولمز، وفي الحقيقة فليست له علاقة كبيرة بقصتي.

علّق صديقي هولمز قائلاً: أنا سعيد بكل التفصيلات، سواء بدت لك ذات صلة أو غير ذات صلة.

- سأحاول أن لا أنسى أي تفصيل ذي أهمية.

الأمر الأول الكريه الذي جذب انتباهي في المنزل هو مظهر الخدم وتصرفاتهم؛ كان هناك اثنان فقط، رجل وزوجته، كان تولر (وهذا هو اسمه) رجلاً خشناً فظاً أشيب الشعر وتفوح منه دائماً رائحة الشراب، وبالرغم من أنني رأيته ثملاً تماماً مرتين منذ إقامتي معهم إلا أن السيد روكاسل لا يبدو عليه الاهتمام بالأمر. أمّا زوجته فهي امرأة طويلة جداً وقوية وذات وجه بغيض وتميل إلى الصمت كالسيدة روكاسل، وإن كانت أقل لطفاً بكثير. إنهما زوجان كريهان جداً، ولكني -لحسن الحظ- أقضي معظم وقتي في غرفة الحضانة وفي غرفتي الخاصة، وهما غرفتان متجاورتان في أحد أركان المبنى.

ساد الهدوء الشديد حياتي لمدة يومين بعد وصولي إلى ذلك المنزل، وفي اليوم الثالث نزلت السيدة روكاسل بعد الإفطار مباشرة وهمست بشيء

لزوجها، فقال وهو يلتفت ناحيتي: آه، نعم، نحن نشعر بامتنان كبير لك يا آنسة هنتر لأنك استجبت لنزوتنا فيما يتعلق بقصّ شعرك، وأؤكد لك أنه لم يقلل من جمال مظهرك ولو قليلاً، وسنرى الآن كيف سيبدو الثوب ذو اللون الأزرق الفولاذي عليك. ستجدينه على السرير في غرفتك، وسنكون شاكرين جداً لو تكرمت بارتدائه الآن.

كان لون الثوب الذي وجدته في انتظاري لوناً غريباً من درجات اللون الأزرق، وكان قماشه من النوع الممتاز ولكنه كان يحمل علامات واضحة تدل على أنه قد لُبس من قبل. كان مقاس الثوب مناسباً تماماً كما لو كان مصنوعاً لي، وقد أبدى كل من السيد والسيدة روكاسل سعادتهما بشكله وإن بالغا في ذلك جداً. كانا ينتظرانني في غرفة الرسم، وهي غرفة واسعة جداً تمتد على طول الجهة الأمامية للمنزل ولها ثلاث نوافذ طويلة تصل إلى الأرض، وقد وُضع كرسي وظهره إلى النافذة الوسطى وطُلب مني أن أجلس عليه، وعندها أخذ السيد روكاسل يمشي في الجهة الأخرى من الغرفة ذهاباً وإياباً وبدأ يقصّ عليّ سلسلة من أكثر القصص التي سمعتها إثارة للضحك. لا يمكنك أن تتخيل كم كان مضحكاً، وهكذا ضحكت حتى أُرهقت تماماً. أما السيدة روكاسل (التي يبدو

من الواضح أنها لا تملك حسّ الدعابة) فلم تبتسم قط، ولكنها جلست ويداها في حجرها وعلى وجهها نظرة حزينة قلقة. وبعد ساعة أو نحو ذلك قال السيد روكاسل فجأة إنه قد حان الوقت لبدء الواجبات اليومية، وقال إن بإمكاني تغيير ثوبي والذهاب إلى الصغير إدوارد في غرفة الحضانة.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

بعد ذلك بيومين أعدنا تمثيل الدور نفسه في ظروف متشابهة تماماً، فقد غيرت ثوبي مرة أخرى وجلست بجوار النافذة ثانية وضحكت بحرارة بسبب القصص المضحكة التي كان ربّ عملي يملك منها ذخيرة هائلة يقصّها بشكل لا يُضاهى، ثم أعطاني قصة ذات غلاف أصفر وحرك الكرسيّ إلى الجانب قليلاً حتى لا يقع خيالي على الصفحة، وتوسل إليّ أن أقرأ له بصوت عالٍ. بدأت القراءة من منتصف أحد فصول القصة ولمدة عشر دقائق حتى أمرني فجأة بالتوقف وأنا في وسط جملة من الجمل.

يمكنك أن تتصور بسهولة -يا سيد هولمز- كيف انتابني الفضول لأعرف معنى هذا السلوك الغريب. لقد لاحظت أنهما كانا حريصَين جداً على أن أدير وجهي بعيداً عن النافذة، لذلك تملكتني الرغبة في رؤية ما كان يحدث خلف ظهري. وبدا الأمر مستحيلاً في البداية، ولكني سرعان ما ابتكرت وسيلة لتحقيق هذا الغرض. كانت مرآتي الصغيرة مكسورة، وهكذا توصلت إلى فكرة مناسبة فأخفيت قطعة من الزجاج في منديلي، وفي المرة التالية وفي وسط ضحكاتي رفعت المنديل إلى الأعلى أمام عيني وتمكنت ببعض المهارة من رؤية كل ما هو موجود خلفي.

وأعترف أنني أُصِبت بخيبة أمل، فلم يكن هناك

شيء! على الأقل كان هذا هو انطباعي الأول، إلا أنني لاحظت حين نظرت ثانية أن هناك رجلاً يقف على طريق ساوثهامبتون، رجلاً ضئيلاً ملتحياً يرتدي بدلة رمادية، وبدا أنه ينظر باتجاهي. وبالرغم من أن هذا الشارع طريق عام مهم وعادة ما يكون فيه أناس إلا أن هذا الرجل كان يتكئ على السور الذي يحيط بحقلنا وينظر إلى أعلى بتركيز.

أنزلت منديلي ونظرت إلى السيدة روكاسل فوجدت عينيها مثبّتة عليّ بنظرة متفحصة، وبالرغم من أنها لم تقُل شيئاً إلا أنني اقتنعت بأنها تكهّنت بأنني كنت أحمل مرآة في يدي وأنني رأيت ما كان ورائي، فوقفت على الفور وقالت: جيفرو، إن هناك شخصاً وقحاً على الطريق يحدق إلى الآنسة هنتر.

فسألني قائلاً: أهو أحد أصدقائك يا آنسة هنتر؟

فقلت: لا، لا أعرف أحداً في هذه الأنحاء.

- يا إلهي، يا لها من وقاحة! أرجو لطفاً أن تستديري وتشيري إليه ليبتعد.

- من الأفضل أن لا نعيره اهتماماً.

قال: لا؛ فحينها سيتسكّع هنا طوالَ الوقت. أرجو أن تستديري وتلوّحي له هكذا كي يبتعد.

فعلت مثلما قالا، وفي نفس اللحظة أغلقت السيدة روكاسل الستارة.

حدث هذا منذ أسبوع، ومنذ ذلك الوقت لم أجلس ثانية أمام النافذة ولم أرتدِ الثوب الأزرق ولم أرَ الرجل الذي كان في الشارع مرة أخرى. هذا ما حدث تماماً يا سيد هولمز.

فقال هولمز: استمرّي أرجوك، فروايتك تبشر بأنها من أكثر القصص إثارة للاهتمام.

- لكنني أخشى أنك ستجدها غير مترابطة إلى حد ما، وقد يتضح عدم وجود صلة بين الحوادث المختلفة التي أتحدث عنها. ففي اليوم الأول لوصولي إلى منزل «أشجار الزان النحاسية» أخذني السيد روكاسل إلى ملحق خارجي صغير يقع بجوار باب المطبخ، وفيما نحن نقترب سمعت صليلاً حاداً كأنه صوت سلسلة مع صوتٍ بدا كصوت حيوان ضخم يتحرك في المكان، ثم قال السيد روكاسل وهو يشير إلى شق بين لوحين خشبيين: انظري إلى الداخل، أليس مخلوقاً جميلاً؟

نظرت عبر الشق فشعرت بعينين لامعتين ورأيت هيئة غير واضحة رابضة في الظلام، فقال رب عملي وهو يضحك حين وثبت رعباً: لا تخافي، إنه ليس إلا

كلبي كارلو، وهو كلب من نوع الدرواس. أنا أدعوه كلبي، ولكن في الحقيقة فإن العجوز تولر، خادمي، هو الوحيد الذي يستطيع التعامل معه. إننا نطعمه مرة واحدة في اليوم ولا نكثر فيها الطعام حتى يظل حاداً، ويطلق تولر سراحه كل ليلة، وليساعد الله أيّ متسلّل يضع الكلبُ أنيابَه عليه؛ ولذلك فحذارِ أن تطأ قدماك عتبة الباب في الليل مهما كان العذر وإلا دفعتِ حياتك ثمناً!

لم يكن التحذير تافهاً، فقد تصادف بعد ليلتين أن كنت أنظر خارج نافذة غرفة نومي في نحو الثانية صباحاً، وكانت ليلة جميلة سطع فيها القمر فأضاء المرج العشبي ليضيء مثل النهار تقريباً، وكنت أقف مستغرقة في الجمال الهادئ للمشهد عندما شعرت بأن شيئاً ما يتحرك تحت ظلال شجرة الزان ذات الأوراق النحاسية، وعندما خرج إلى ضوء القمر رأيته... كان كلباً عملاقاً كبيراً كالعِجل، لونه بني فاتح وله ثنية من الجلد معلّقة عند ذقنه، ومقدّمة وجهه سوداء وعظامه ضخمة بارزة، وقد مشى ببطء عبر المرج ليختفي عند الجانب الآخر في العتمة. لقد بثّ هذا الحارس المخيف الرعبَ في قلبي أكثر من أي لصّ محتمَل.

والآن ها هي تجربة غريبة جداً سأخبرك بها؛ فأنا -كما تعرف- قصصت شعري في لندن، وقد وضعته

في لفّة كبيرة في صندوق ملابسي، وذات مساء بعد أن ذهب الطفل إلى النوم بدأت أسلّي نفسي بتفحص أثاث غرفتي وإعادة ترتيب أغراضي البسيطة، وكانت في الغرفة خزانة ملابس ذات أدراج، وكان الدُّرْجان العلويان فارغَين ومفتوحين، أما السفلي فكان مغلقاً. فملأت الدرج الأول والثاني بملابسي الكتّانية، وقد انزعجت بطبيعة الحال لعدم تمكّني من استخدام الدرج الثالث حيث كان لا يزال لدي الكثير من الأغراض التي أود ترتيبها في الخزانة، فخطر ببالي أنه ربما أُغلِق سهواً، فأخذت مجموعة مفاتيحي وحاولت فتحه. وقد كان المفتاح الأول الذي حاولت استخدامه مناسباً تماماً ففتحت الدرج، ولم يكن فيه إلا شيء واحد، ولكنني على يقين من أنك لن تستطيع أبداً تخمين ما هو هذا الشيء... لقد كانت لفّة شعري!

رفعتها إلى الأعلى وتفحصتها. كانت من نفس درجة اللون ونفس الكثافة، ولكنني شعرت باستحالة حدوث أمر كهذا، فكيف يمكن أن يتم إغلاق الدرج على شعري؟! فقمت ويداي ترتجفان وفتحت صندوقي وأخرجت محتوياته لأسحب شعري من قاعِه، ثم وضعت الضفيرتين معاً... وأؤكد لك أنهما متطابقتان تماماً. أليس هذا أمراً فائق الغرابة؟!

لقد تملكتني الحيرة ولم أستطع استنتاج معنى

هذا الأمر، فأعدت الشعر الغريب إلى الدرج، ولم أقل شيئاً للزوجين؛ فقد شعرت أنني وضعت نفسي في محل لوم لأنني فتحت الدرج الذي حرصا على إغلاقه.

ربما كنتَ قد لاحظت -يا سيد هولمز- أنني حادة الملاحظة بطبيعتي، وهكذا فقد رسمت في عقلي خريطة جيدة جداً للمنزل. كان فيه جناحي الذي ظهر



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

أنه غير مأهول تماماً، وكان الباب المواجه للباب الذي يقود إلى سكن الزوجين تولر يفتح على هذا الجناح ولكنه كان مغلقاً دائماً، ولكني أذكر أنني قابلت السيد روكاسل في أحد الأيام وهو يخرج من هذا الباب وفي يده مفاتيحه وعلى وجهه نظرة جعلت منه شخصاً مختلفاً عن ذلك الرجل البشوش دائماً الذي تعودت عليه، فقد بدا أحمر الوجه عاقد الحاجبين من الغضب وعروقه تنفر من جبينه بسبب الانفعال الشديد، وقد أغلق الباب ثم مرّ بجواري مسرعاً دون أن ينطق بكلمة أو ينظر ناحيتي.

وأثار هذا الأمر فضولي، ولذلك فعندما خرجت لأتنزه في الحديقة مع الطفل مشيت حتى وصلت إلى الجانب الذي أستطيع منه رؤية نوافذ ذلك الجزء من المنزل. كان هناك صفّ من أربعة نوافذ، ثلاثة منها كانت متسخة أما الرابعة فكانت مغلقة بالمصاريع، وكان من الواضح أنها مهجورة كلها. وبينما أخذت أمشي ذهاباً وإياباً وأنا أنظر باتجاه النوافذ من حين إلى آخر خرج السيد روكاسل يبدو عليه المرح والسعادة كالمعتاد وقال: آه، أرجو أن تعذريني لأنني مررت بجوارك دون أن أكلمك يا سيدتي العزيزة، فقد كان ذهني مشغولاً بأمور العمل.

فأكدت له أنني لم أتضايق ثم قلت: بالمناسبة،

يبدو أن في بيتك جناحاً كاملاً من الغرف الشاغرة، ونافذة إحداها مغلقة بالمصاريع.

فبدت عليه الدهشة وبدا لي وقد جفل قليلاً من ملاحظتي وقال: إن التصوير الفوتوغرافي هو هوايتي، وقد صنعت غرفتي المظلمة هناك في الأعلى. ولكن... يا إلهي، كم أنت قوية الملاحظة! من كان ليصدق ذلك، من كان ليصدق ذلك؟!

تحدث بنبرة دعابة، ولكني لم أرَ في عينيه دعابة عندما نظر إليّ، بل قرأت فيهما الشك والضيق لا الدعابة.

حسناً يا سيد هولمز، منذ تلك اللحظة فهمت أن هناك شيئاً ما بخصوص جناح الغرف ذاك لا يجب عليّ أن أعرفه، وقد انتابتني الحماسة الشديدة لأذهب إلى هناك. لم يكن الأمر فضولاً فحسب بل لقد انتابني شعور بالواجب، شعور بأن شيئاً جيداً قد يحدث لو دخلت ذلك المكان.

يتحدث الناس عن غريزة المرأة، وربما كانت غريزة المرأة هي ما ولّدت عندي هذا الشعور. وفي كل الأحوال كان الشعور قوياً وكنت في حالة ترقّب شديد لأية فرصة حتى أستطيع المرور من الباب المحرّم. وقد واتتني الفرصة بالأمس فقط، ويمكنني إخبارك

أن السيد روكاسل ليس الوحيد الذي يستعمل تلك الغرف المهجورة، بل إن تولر وزوجته يفعلان ذلك أيضاً، ففي إحدى المرات رأيت تولر يحمل حقيبة كبيرة من الكتان الأسود ويعبر الباب. وهو قد صار مؤخراً يشرب كثيراً وكان بالأمس ثملاً جداً، ولذلك فعندما صعدت إلى الدور العلوي ووجدت المفتاح في الباب لم أشكّ على الإطلاق في أنه قد سها عنه فتركه هناك.

كان السيد والسيدة روكاسل في الطابق السفلي ومعهما الطفل، فوجدتها فرصة سانحة، فأدرت المفتاح في القفل بهدوء وفتحت الباب وتسللت إلى الداخل.

كان الممر أمامي صغيراً غير مغطى بالورق ولا مفروشاً بالسجاد، ينعطف في نهايته بزاوية قائمة، ويوجد عند تلك الزاوية صف من ثلاثة أبواب. كان الباب الأول والثالث مفتوحين ويفضي كل منهما إلى غرفة خالية قاتمة مليئة بالتراب وفي إحداهما نافذتان وفي الأخرى نافذة واحدة، وكان الغبار الكثيف يملؤهما لدرجة أن ضوء المساء كان يومض عبره بخفوت. أما الباب الأوسط فكان مغلقاً وقد ثُبّت أحد الأعمدة العريضة لسرير حديدي على طول الجزء الخارجي منه، وقد رُبط العمود من أحد طرفيه بحبل

متين وثُبِّت من الطرف الآخر بقفل داخل في حلقة في الجدار، ولم يكن المفتاح موجوداً في القفل.

كان هذا الباب المحصَّن يتوافق تماماً مع النافذة المغلقة بالمصاريع في الخارج، وبالرغم من ذلك فقد استطعت أن أعرف أن الغرفة لم تكن مظلمة بسبب بصيص الضوء الظاهر من تحت عقب الباب، وكان من الواضح أن في السقف نافذة تسمح بدخول الضوء من الأعلى. وبينما كنت أقف في الممر أحدق إلى الباب المشؤوم وأتساءل عن السر الذي يحجبه سمعت فجأة صوت خطوات داخل الغرفة ورأيت ظلاً يتحرك ذهاباً وإياباً من خلال الضوء الخافت الذي يلمع من تحت عتبة الباب! فانتابني رعب شديد غير منطقي فور رؤيتي لذلك يا سيد هولمز، وخانتني أعصابي المتوترة فجأة، فاستدرت وأخذت أجري وأجري وكأن يداً شريرة ورائي تحاول الإمساك بثوبي... جريت مسرعة عبر الرُّواق لأخرج من الباب مباشرة إلى ذارعَي السيد روكاسل الذي كان ينتظر في الخارج.

قال مبتسماً: كنتِ أنت إذن؟ لقد تأكدت من ذلك حين رأيت الباب مفتوحاً.

فلهثت قائلة: آه، إنني خائفة جداً!

لا يمكنك أن تتصور كم كان تصرفه لطيفاً

ومهدّئاً وهو يقول: سيدتي العزيزة، سيدتي العزيزة... ما الذي أخافك يا سيدتي العزيزة؟

ولكنه غالى في إظهار تملّقه وظهر ذلك في نبرات صوته، ولذلك أخذت حذري منه فأجبته قائلة: لقد دخلت إلى الجناح الخالي لحماقتي، ولكنه



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

موحش جداً ومخيف في هذا الضوء الخافت، فخفت وخرجت ثانية. آه، المكان يسوده السكون بشكل مخيف.

فنظر إليّ بحدة وقال: هذا فقط؟

فسألته: ماذا؟ ماذا كنت تعتقد؟

- ولماذا تظنين أنني أحكمت إغلاق هذا الباب؟

- لا أعرف بالتأكيد.

- لمنع الذين لا عمل لهم هنا من الدخول، هل فهمت؟

كان لا يزال يبتسم بودّ شديد، فقلت: أنا متأكدة أنني لو كنت أعرف...

- حسناً إذن، لقد صرت تعرفين الآن، ولو وضعتِ قدميك على هذه العتبة ثانية...

وحينئذ قست ابتسامته وتحولت إلى تكشيرة غاضبة وحملق إليّ بوجه شيطاني وأكمل قائلاً: سأرميك إلى الكلب!

كنت خائفة جداً حتى إنني لا أعرف ماذا فعلت، وأعتقد أنني جريت متجاوزة إياه وذهبت إلى غرفتي، فلا أتذكر شيئاً حتى وجدت نفسي راقدة على السرير

وأوصالي كلها ترتعد. ثم فكرت فيك يا سيد هولمز، فلم أكن قادرة على الاستمرار في الإقامة هناك دون بعض النصح. لقد كنت أشعر بالرعب من المنزل ومن الرجل ومن المرأة ومن الخدم، حتى من الطفل... شعرت بالرعب منهم جميعاً، وفكرت في أنك لو جئت فسيكون كل شيء على ما يرام.

بالطبع كنت أستطيع الهروب من المنزل، ولكن فضولي كان بنفس قوة خوفي، فاستقر رأيي على أن أرسل إليك برقية، فارتديت قبعتي ومعطفي واتجهت إلى المكتب الذي يبعد نحو نصف ميل عن المنزل، ثم عدت ثانية وأنا أشعر براحة أكبر. وقد جال بذهني خاطر مرعب حين اقتربت من المنزل خشية أن يكون الكلب طليقاً، ولكنني تذكرت أن تولر قد شرب حتى غاب عن وعيه في ذلك المساء، وأنا أعرف أنه الوحيد في المنزل الذي له بعض السيطرة على المخلوق الهمجي وأنه الوحيد الذي يغامر بإطلاق سراحه، فتسللت إلى الداخل بأمان، وبقيت مستيقظة حتى منتصف الليل فرحاً بفكرة أنني سأراك في اليوم التالي.

ولم أجد صعوبة في الحصول على إذن بالقدوم إلى وينشستر هذا الصباح، ولكن يجب عليّ العودة قبل الساعة الثالثة لأن السيد والسيدة روكاسل سيذهبان في زيارة وسيقضيان كل الأمسية بالخارج،

ولذلك يجب أن أعتني بالطفل. والآن ها قد أخبرتك بمغامراتي كلها يا سيد هولمز، وسيسعدني كثيراً أن تخبرني بمعنى كل ذلك، وقبل كل شيء ما الذي يجب عليّ فعله.

* * *

استمعنا هولمز وأنا إلى هذه القصة الغريبة في إنصات شديد، ثم وقف صديقي وأخذ يذرع المكان ذهاباً وإياباً واضعاً يديه في جيبيه وتعلو وجهه الصرامة. وأخيراً سأل قائلاً: ألا يزال تولر ثملاً؟

- نعم، فقد سمعت زوجته تخبر السيدة روكاسل بأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً بشأنه.

- هذا جيد. وسيخرج الزوجان الليلة؟

- نعم.

- أفي المنزل قبو له قفل قوي؟

- نعم.

- يبدو لي أنك قد تصرفت في هذا الأمر كفتاة عاقلة وشجاعة جداً يا آنسة هنتر. أتعتقدين أنك قادرة على القيام بعمل بطولي آخر؟ لم أكن لأطلب منك ذلك لولا أنني أعتقد أنك امرأة استثنائية.

- سأحاول. ما الذي عليّ فعله؟

- سنذهب إلى المنزل عند الساعة السابعة، وسيكون الزوجان قد خرجا في ذلك الوقت، ونأمل أن يكون تولر غير قادر على فعل شيء، وستبقى السيدة تولر فقط هي القادرة على فضحنا، فلو استطعت إرسالها إلى القبو في مهمة ثم أدرت المفتاح لتغلقي الباب عليها فسوف تيسّرين الأمور كثيراً.

- سأفعل ذلك.

- ممتاز، سندرس الأمر إذن. إنني أجد تفسيراً واحداً فقط يمكن قبوله؛ فقد تم إحضارك إلى ذلك البيت لتنتحلي شخصية شخص ما، وهذا الشخص مسجون في تلك الغرفة. هذا واضح، أما بالنسبة إلى هوية هذا السجين فلا شكّ في أنها الابنة، الآنسة أليس روكاسل التي قيل إنها في أمريكا. لقد تم اختيارك -بلا شك- لأنك تشبهينها في الطول وشكل الجسم ولون الشعر، وقد تم قصّ شعرها في الغالب بسبب مرض أصابها، ولهذا كان يجب التضحية بشعرك أيضاً بالطبع، وقد عثرتِ على خصلات شعرها بمصادفة غريبة. ولا شك في أن الرجل الواقف على الطريق هو صديق لها أو من الممكن أن يكون خطيبها، ولا شك أنه عندما رآك وأنت ترتدين ثوب الفتاة وتشبهينها كثيراً اقتنع -من خلال ضحكك كلما رآك، وبعد ذلك

بسبب إشارتك له بالابتعاد- بأن الآنسة روكاسل سعيدة تماماً ولم تعد تريده... ولعلهم يتركون الكلب طليقاً ليلاً لمنعه من محاولة الاتصال بها. حتى الآن أرى الأمر واضحاً، أما أخطر نقطة في القضية فهي طبيعة شخصية الطفل.

فتعجبت قائلاً: ما علاقة هذا الأمر بالقضية؟!

- يا عزيزي واطسون، أنتم -الأطباء- تتعرفون على أسباب جنوح الطفل بواسطة دراسة أبويه. ألا توافق على أن العكس صحيح أيضاً؟ فأنا عادة ما أكسب فهمي العميق لشخصية الآباء عن طريق دراسة سلوك أطفالهم، فطباع هذا الطفل قاسية بشكل غير عادي لمجرد القسوة في حد ذاتها، وسواء أكتسبَ هذا الأمر من أبيه المبتسم -تظاهراً- أم من أمه فهذا نذير شرّ بالنسبة للفتاة المسكينة الموجودة في قبضتهما.

صاحت عميلتنا قائلة: أنا متأكدة أنك على حق يا سيد هولمز. أتذكّر الآن الكثير من المواقف التي تؤكد لي أنك فهمت الأمر تماماً. دعنا لا نضيّع أي لحظة قبل مساعدة هذه الفتاة المسكينة.

- يجب أن نأخذ حذرنا، فنحن نتعامل مع شخص ماكر جداً. ولن نستطيع أن نفعل شيئاً قبل الساعة السابعة، وفي تلك الساعة سنكون معك ولن

يمضي وقت طويل قبل أن نحلّ اللغز.

* * *

حافظنا على وعدنا، فقد كانت الساعة السابعة تماماً حين وصلنا إلى منزل «أشجار الزان النحاسية». كانت مجموعة الأشجار وأوراقها الداكنة التي تلمع كمعدن مصقول في ضوء الشمس الغاربة كافية لنستدلّ على المنزل حتى لو لم تقف الآنسة هنتر على عتبة الباب مبتسمة.

سألها هولمز: هل تمكنت من إتمام الأمر؟

ثم سمعنا صوت دقّات مكتومة صادرة من مكان ما أسفل المنزل، فقالت: هذه هي السيدة تولر في القبو وزوجها يغطّ في نومه على سجادة المطبخ، وها هي مفاتيحه، وهي نسخة مطابقة لمفاتيح السيد روكاسل.

فصاح هولمز بحماسة: لقد تصرفت بشكل جيد حقاً. والآن تقدمي الطريق، وسننهي هذا الأمر البغيض سريعاً.

صعدنا الدرَج وفتحنا الباب وتابعنا السير في الرواق فوجدنا أنفسنا أمام العمود الذي وصفته الآنسة هنتر، فقطع هولمز الحبل وأزال العمود المستعرض، ثم

أخذ يجرب المفاتيح في قفل الباب ولكن بلا فائدة، ولم يصدر أي صوت من الداخل، فاكفهرّ وجه هولمز بسبب هذا السكون وقال: أرجو أن لا نكون قد تأخرنا. أعتقد -يا آنسة هنتر- أن من الأفضل أن ندخل دونك. والآن يا واطسون، ادفع الباب بكتفك ولنرَ إن كنا سنستطيع اقتحامه.

كان الباب قديماً متهالكاً فانهار أمام قوّتنا المتحدة، فاندفعنا معاً إلى الغرفة لنجدها خالية! لم يكن فيها أثاث إلا فراش ضيق من القش وطاولة صغيرة وسلّة مليئة بالملابس الكتانية، وكانت نافذة السقف مفتوحة والسجينة غير موجودة!

قال هولمز: لقد وقعَت جريمة، فقد خمّن ذلك المخادع نيّة الآنسة هنتر فهرب بضحيته.

- ولكن كيف؟

- عبر فتحة السقف، وسنرى حالاً كيف تمكّن من ذلك.

تأرجح رافعاً نفسه إلى الأعلى فوق السقف ثم صاح قائلاً: آه، نعم، ها هي نهاية سلّم طويل خفيف على حافة السطح. هذه هي الطريقة التي قام بها بالأمر.

قالت الآنسة هنتر: ولكن هذا مستحيل، فلم يكن

السلّم هناك حين غادر الزوجان روكاسل المنزل.

- ولكنه عاد ليقوم بالأمر. قلت لكم إنه رجل ماهر وخطير، ولن أُفاجأ إذا كان هو مَن أسمع خطواته على الدرج. أعتقد يا واطسون أن من الجيد أن تستعد بمسدسك.

لم تكَد الكلمات تخرج من فمه حتى ظهر بالباب رجل بدين ضخم الجسم وفي يده عصا، فصرخت الآنسة هنتر حين شاهدته وانكمشت عند الجدار، ولكن شيرلوك هولمز وثب إلى الأمام وواجهه قائلاً: أيها الشرير، أين ابنتك؟



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

فدار الرجل بعينيه فيما حوله ثم إلى النافذة المفتوحة في الأعلى، ثم صرخ قائلاً: لا بد أن أسألك أنا هذا السؤال، أيها اللصوص... جواسيس ولصوص. لقد قبضت عليكم، أليس كذلك؟ أنتم تحت رحمتي، سأنتقم منكم.

ثم هبط الدرج محدثاً أقصى ما يستطيع من ضجة، فصاحت الآنسة هنتر: لقد ذهب ليحضر الكلب!

فقلت: لا تخافي، معي مسدسي.

صاح هولمز: من الأفضل أن نغلق الباب الأمامي.

فاندفعنا جميعاً ننزل الدرَج معاً، ولم نكد نصل إلى القاعة حتى سمعنا نباح كلب، وبعد ذلك سمعنا صرخة ألم، صرخة رهيبة مرعبة. ولم يلبث أن اندفع من الباب الجانبي رجل عجوز له وجه أحمر وهو يترنّح وأوصاله ترتعش وصاح قائلاً: يا إلهي، لقد أطلق أحدهم سراح الكلب! لم يطعمه أحد منذ يومين... أسرعوا، أسرعوا وإلا فات الأوان!

فأسرعت أنا وهولمز إلى الخارج، ثم دُرنا حول ركن المنزل وتولر يسرع خلفنا، وهناك وجدنا الوحش الضخم الجائع وأنيابه مغروزة في حلق روكاسل الذي كان يتلوى ويصرخ على الأرض.

اندفعت جرياً وأطلقت النار على رأس الكلب فسقط وأسنانه البيضاء الحادة ما تزال مطبقة على ذقن روكاسل الضخمة، وقد نجحنا بعد مجهود عنيف بفصل الأنياب الحادة عن رقبة الرجل وحملناه إلى المنزل وهو على قيد الحياة، ولكنه كان مشوّهاً بشدة، ووضعناه على أريكة غرفة الرسم وأرسلنا تولر الذي استفاق إلى زوجته ليخبرها بالأمر، ثم قمت بما أستطيع كطبيب لأخفف من ألمه.

كنا كلنا مجتمعين حوله حين دخلت الغرفةَ امرأةٌ طويلة كئيبة، فصاحت الآنسة هنتر: السيدة تولر؟!

– نعم يا آنسة، لقد أطلق السيد روكاسل سراحي حين عاد وقبل أن يصعد إليكم. آه يا آنسة، من



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

المؤسف أنك لم تخبريني بما كنت تخططين له لأنني كنت سأخبرك عندئذ أن جهودك ليس لها فائدة.

فقال هولمز وهو ينظر إليها بحدّة: من الواضح أن السيدة تولر تعلم عن هذا الأمر أكثر من أي شخص آخر.

- نعم يا سيدي، وأنا على استعداد لإخبارك بما أعرف.

- أرجوك أن تجلسي ولنسمع ما لديك، فأنا أعترف بأن هناك عدة نقط لم تتضح لي بعد.

فقالت: سأوضح الأمر سريعاً، وكنت سأفعل ذلك قبل الآن لو استطعت الخروج من القبو، ولكن إذا كان في هذا الموضوع شرطة ومحكمة فتذكّر أنني كنت صديقتك وصديقة الآنسة أليس أيضاً.

سكتت قليلاً ونظرت إلى هولمز باستعطاف، ثم بدأت تتكلم قائلة: لم تكن الآنسة أليس سعيدة في المنزل منذ تزوّج والدها مرة ثانية، ثم تجاهل وجودها ولم يستشرها أحدٌ في أي شيء، ولكن الوضع لم يصبح سيئاً حقاً حتى قابلت السيد فاولر في منزل أحد الأصدقاء. وعلى حد علمي فالآنسة أليس تملك حقوقاً خاصة بناء على وصية، ولكنها

كانت هادئة صابرة فلم تطالب السيد روكاسل بشيء منها، بل تركتها كلها تحت إدارته. كان يعرف أنها لن تخونه، ولكن حين ظهرت فرصة وجود زوج قد يطالب بكل الحقوق التي يعطيها له القانون فكر والدها بأن من الأفضل أن يُنهي الأمر، فأراد منها أن توقّع على ورقة حتى يستطيع استخدام أموالها سواء أتزوجت أم لم تتزوج، وعندما رفضت أن تفعل ذلك استمر في إزعاجها حتى أصيبت بحمى الدماغ وظلت لستة أسابيع على أعتاب الموت، ثم تحسنت أخيراً، ولكنها كانت مرهقة تماماً وشعرها الجميل تم قصّه، على أن هذا كله لم يغيّر من موقف صديقها الشاب فتمسك بها كما يفعل الرجل الحقيقي.

قال هولمز: نعم، أظن أن ما تكرمتِ وأخبرتِنا به يوضّح الأمر تماماً، ويمكنني أن أستنتج الباقي، فقد عمد السيد روكاسل إلى أسلوب السجن هذا.

- نعم يا سيدي.

- وأحضر الآنسة هنتر من لندن حتى يتخلص من إلحاح السيد فاولر المزعج.

- هكذا كان الأمر يا سيدي.

- ولكن لأن السيد فاولر رجل مثابر (كما يجب أن يكون أيّ بحّار) فقد حاصر المنزل ونجح حين

قابلك أن يقنعك بحجج معينة، سواء كانت قوية أو غير ذلك، بأن من مصلحتك أن تساعديه.

فقالت السيدة تولر بصدق: إن السيد فاولر رجل سخيّ وحديثه لطيف.

- وبهذه الطريقة ضَمِنَ أن يكون رجلك ثملاً وأن يتم تجهيز السلّم في اللحظة التي يخرج فيها سيدك.

- لقد فهمتَ الأمر يا سيدي، هذا هو ما حدث تماماً.

فقال هولمز: نحن ندين لك باعتذار يا سيدة تولر، فقد وضّحتِ لنا كل ما كان يحيّرنا. وها هو طبيب القرية قادم مع السيدة روكاسل، ولذلك أظن -يا واطسون- أنه يحسن بنا أن نرافق الآنسة هنتر إلى وينشستر، فقد بات موقفنا مثيراً للشك الآن.

* * *

هكذا تم حل لغز المنزل المشؤوم الذي ترتفع أمام بابه أشجارُ الزّان ذات الأوراق النحاسية اللون. وقد نجا السيد روكاسل ولكنه سيبقى مشوَّهاً، ولعله لم يبقَ حياً إلا بفضل رعاية زوجته المخلصة، وهما ما يزالان يعيشان مع الخادمين اللذين يُحتمَل أنهما يعرفان الكثير عن ماضي روكاسل بحيث يجد صعوبة

في التخلص منهما.

وتزوّج السيد فاولر والآنسة أليس روكاسل في ساوثهامبتون في اليوم التالي لهروبهما، وهو يعمل الآن في وظيفة حكومية في جزيرة موريشوس. أما الآنسة فيوليت هنتر فتعمل الآن مديرة لمدرسة خاصة، حيث لقيت قدراً كبيراً من النجاح كما سمعت.

* * *

-تمت-